

نظرية التصاري محمد بن فيي وأفق النقد الحضاري

~~~~~ أ/بوعرفة عبد القادر

إن الإنسان كمشكلة جوهرية في العالم الإسلامي، لها أبعاد في شتى ميادين المجال الحضاري، ومن الواضح أن مالك بن نبي حاول من خلال رصد إشكالية الإنسان أن يبين وجود حالة مرضية أصابت إنسان ما بعد الموحدين الذي يرمز إلى عصر الانحطاط، وتلك السمات المرضية العامة والخاصة تكون بمثابة المرآة العاكسة له.

والمرض الحضاري سماته في الغالب يمتد زمنها قرونا في الذات، تعمل على إبراز صيانية الإنسان، ولقد اصطلح مالك بن نبي على تسميتها بالأمراض شبه الصيانية مع العلم أن لينين سبقه إلى ذلك عندما درس الماركسية وما سيترتب عنها من نقائص وسلبات نتيجة الوعي الزائف والمرض الصياني.

وللإشارة أن السمات المرضية تعرض إليها كثير من المفكرين العرب المعاصرين، غير أن الدراسة اقتصرت على جانب دون آخر، فالجابري مثلاً درس سمة مرضية تتعلق بالعقل العربي من نأيا أزمة الخطاب العربي المعاصر، كما تعرض محمد محي الدين إلى سمة الفخر والتغني بالماضي. ونحن نعلم أن علم النفس المعاصر يربط العرض النفسي أو العصبي بالحالات النفسية للآنا وخاصة اللاشعور، وعليه فكل سمة من سمات تعتبر كعرض مرضي للآنا الإسلامي.

وفي المقال الموالي سنعمل على تبيان أين تكمن أزمة الإنسان، ويتطلب البحث والتقضي عن الأمراض الصيانية، دراسة مسحية لجل مؤلفات بن نبي.

# المقالات



وقبل خوض غمار التحليل والتقصي، لدي بعض الملاحظات لا بد أن نشير إليها في

1- الأمراض الصيبانية الخاصة بإنسان ما بعد الموحدين أنتجت ظروف كونية تتعلق بمسألة الدورة أساسا، وبالتالي هي حالة تصيب كل إنسان عرف الحضارة. تعرض لها إنسان الرومان قديما كما بين مونتسكيو ذلك في كتاب (تأملات في أسباب عظمة الرومان وتحللها).

2- العامل الاستعماري نَمَى الأمراض شبه الصيبانية عن طريق حلبة الصراع الفكري من أجل تمديد عصر السبات الحضاري.

3- الأمراض شبه الصيبانية تجعل الإنسان يركن إلى الغريزة وتفقد الروح فرقتها والعقل نوره، ويغدو الإنسان مجرد طفل حضاري، وشبه مالك بن نبي المرحلة التي يعيشها المسلم من عصر ما بعد الموحدين بمرحلة الطفولة لدى الكائن البيولوجي.

4- الأمراض شبه الصيبانية تنتج عطالة في ثلاث قوى، العقل، القلب، اليد، وبالتالي تنتج ثلاث أزومات: أزمة عقل انعكست سلبا على التفكير وأنتجت إما فكرا ميتا أو مميتا، وأزمة روحية مست النفس فكان الانزواء والانطواء الحضاري، وأصبح الدين مجرد طقوس وعادات، والأزمة الثالثة تجلت في الإنتاج والاستهلاك، فلم تزرع اليد ما تأكل، ولم تنسج ما تلبس، ولم تصنع بما تعمل.

5- الأمراض شبه الصيبانية تدخل تحت إطار "ما ضد الإنسان" (anti-homme) وبالتالي تعتبر نقطة خطيرة في مجال البعث الحضاري، لأنها مرتبطة بالمرحلة الأخيرة تعكس مرحلة الوهن الفكري والنفسي الناتج عن تراكم مجموع الأمراض، التي أدت إلى إخراج المسلم من المركزية الحضارية والتاريخية إلى هامش التاريخ أو مزبلة الحضارة كما قال بن نبي، إذ تحول الإنسان إلى مجرد صبي في حركة الحضارة والتاريخ.

6- الأمراض شبه الصيبانية تعكس أن مشكلة العالم الإسلامي تكمن في النموذج، وأن الذوق العربي هو نفسه مريض، يقول مالك: "فالذوق العربي لا يدرك تماما استغرابه، لأنه لم يفكر في مشكلة النموذج".<sup>1</sup>

وعليه: ما هي أبرز السمات المرضية؟ ما مدى تأثيرها في المسار الحضاري للإنسان؟ وما مدى قيمة إدراكها في بعث الإنسان وإعادة صياغة النموذج المفقود؟

أو لا: - سمات المرض النفسي لإنسان ما بعد الموحدين

إذا كانت القابلية للاستعمار السمة البارزة في نفسية إنسان العالم الثالث على العموم، فهذا يعني ارتباطها بالنفس من منطلقات اللاشعور الجمعي، الذي نلاحظ ملامحه في النكوص الحضاري، أو نزعة التبرير... الخ

وإنسان ما بعد الموحدين دخل مرحلة الكبت والشعور بالنقص فتكونت في آناه جملة من العقد جعلت المجتمع الإسلامي مجتمعا مذرذرا (مفككا)، عاجزا عن القيام بأي عمل خلاق يحل عليه منطق التحدي والرد - الاستجابة - (DEFI-RIPOSTE).

والنفس الاجتماعية تصاب بجملة من الأمراض والأعراض، يمكن للدارس أن يستقرءها من خلال عمل فكري جاد للعالم الفرنسي غوستاف لوبون حين حلل نفسية الحشود في كتابه "روح الاجتماع"، ويظهر أن مالك بن نبي أدرك هو الآخر أن الأفول الحضاري لا ينتج سوى حشودا بشرية، تشبه قطعان الغنم، فبرغم كمها العددي فهي لا تقدر أن تصنع لنفسها عالم أشياء أو أفكار، لأن العطالة مست جميع نواحي الحياة، ويتزامن مع العطالة عرض نفسي أخطر من الداء نفسه يتمثل في أعذار العطالة التي نلاحظ وجودها في أبسط أعمالنا اليومية.

والسمات النفسية التي تعكس الأمراض شبه الصيبانية يمكن حصرها على النحو التالي:

1- نزعة التسامي والتعالي: مركب النقص تجاه الحضارة الأرو-أمريكية وثقافتها المادية، جعلت الذات العربية المعاصرة تسلك مسلكا سحريا تمثل في النكوص إلى الورا، عن طريق امتداح الماضي وفق أدب الفخر وذكر مناقب السلف. والخطاب الرومانسي الحالم، وبدل أن يثمر العمل ويخلق في الذات رغبة قوية في التقدم نحو النموذج الغالب، خلق مرضا نفسيا تمثل في ذهان التعالي الذي يعكس أزمة تراجيدية تجلت في سلوك اضطرابي مفعم بالهيجان العاطفي المدمر، من أبرز نتائجه تعدد النكسات والهزائم المتكررة على يد ثلة من البشر؛ فنفسية الشعور بالعملاقة مجرد حلم يقظة، يخفي حقيقة الأنا القرمية معنويا، فكل ذات عندما تفقد عناصر التحدي وآليات التكيف، يسيطر عليها ذهان الاضطراب السلوكي، الذي يمكن أن نصطلح عليها بالهستيريا الحضارية التي تتناب الذات العربية منذ الأفول، فتلجأ إلى أسلوب حيوان النعام - أي دفن الرأس في الرمال - والرمال ليست بالنسبة لإنسان ما بعد الموحدين سوى ذلك العالم السحري المليء بالفخر والزهو، وخطاب "كنا" أو نحن الأولي عرف الزمان... الخ.



الفكر عاطلا متعدي التأثير بقي النشاط حركة وفوضى، وتزاحما يبعث على الضحك والرتاء، وليس هذا سوى شكل من أشكال الشلل الاجتماعي<sup>4</sup>.

وليت الأمر توقف عند ذهان السهولة فحسب، بل امتلكه ذهان أخطر من الأول، تمثل في ذهان المستحيل الذي نراه في شمال إفريقيا تحويه ثلاث شعارات:

أ- لسنا بقادرين على فعل شيء لأننا جاهلون (نقص العلم).

ب- لسنا بقادرين على أداء عمل ما لأننا فقراء (نقص المادة).

ج- لسنا بقادرين على تصور الأمر لأن الغزو الثقافي ببلادنا (التبعية).

ومن خلال الشعارات السالفة نلاحظ أن العطالة مست ثلاث جوانب في الإنسان (أ = عطالة الروح والقلب)، (ب = عطالة اليد)، (ج = عطالة العقل).

وذهان السهولة والمستحيل يعدم العلاقة بين الفكر والنشاط، ويجعل الفوضى تسود الأعمال، فيسود الاضطراب ويجد الإنسان نفسه في حالة هيجان تعكس فشله، فتصدع العلاقة بين ذاته والموضوع، يعبر مالك عن هذه الحالة بقوله: "فلكل نشاط عملي علاقة بالفكر، فمضى إعدمت - هذه العلاقة - عمي النشاط واضطرب، وأصبح جهدا بلا دافع، وكذلك الأمر حين يصاب الفكر أو ينعدم فإن النشاط يصبح مختلا مستحيلا، وعندئذ يكون تقديرنا للأشياء تقديرا ذالبا، وهو في عرف الحقيقة خيانة لطبيعتها وغمط لأهميتها، سواء كان غلوا في تقديمها أم حطا من قيمتها"<sup>5</sup>.

وتبرير عدم القدرة على فعل نشاط ما بالمستحيل، ينبئ أن الإنسان بلغ من التسيب الحضاري درجة قصوى، يجعل منه مجرد كتلة من اللحم متحركة، واستعمال بن نبي لفظ "خيانة" يبرز أن منطق السهل والمستحيل جعل العالم الإسلامي يفقد الفعالية الحضارية والمغامرة المتجلية في الفتوحات الإسلامية وتحمل الصعاب والمشقة.

فإنسان بدر لو عمل بمنطق إنسان ما بعد الموحدين ما كان أبدا ليؤسس دولة المدينة، ثم يبعث جيوشه لتفتح العالم للمرة الثانية في تاريخ البشرية بعد الإسكندر المقدوني.

إنها خيانة عظيمة للحضارة وروح الانتماء عندما يسيطر ذهان السهولة والمستحيل على عقليات أفراد المجتمع، بل إنها مطية للاستعمار مهما كان لونه ونوعه، يقول مالك بن نبي في هذه النقطة بالذات: "وهذان الشكلان من أشكال الخيانة يتمثلان في العالم الإسلامي الحديث، في صورة

وعقدة التسامي يراها المستشرق هاملتون جب إحدى العوائق التي تجعل العقل الإسلامي عاجزا عن فهم مشكلاته الحقيقية، ونفس الرأي تقريبا ذهب إليه الدكتور عبد اللطيف عبادة حين قال: "إن استخدام نزعة المديح وأدب الفخر والتمجيد كوسيلة للتغلب على مركب النقص الذي اعترانا إزاء سلطان الثقافة الغربية، واضح أنهما وسيلة للتخدير والتسليّة تعزل الفكر والضمير عن الشعور بالمناعب الحقيقية"<sup>2</sup>.

والثقافة عند أي شعب ما إذا اتجهت إلى الماضي مدحا وتمجيذا فقط، فإنها تعلن موت أهلها وفقدان أدنى حضور في مجرى أحداث عالم الكبار.

والعالم الإسلامي ثقافته المعاصرة يحددها مالك بن نبي في قوله: "فحين اتجهت الثقافة إلى امتداح الماضي أصبحت ثقافة أثرية، لا يتجه العمل الفكري فيها إلى الأمام بل ينكص إلى الوراء، وكان هذا الاتجاه الناكص المسرف سببا في انطباع التعليم كله بطابع دارس لا يتفق ومقتضيات الحاضر والمستقبل، وبذلك أصيبت الأفكار بظاهرة التثبث بالماضي، كأنها قد أصبحت متنفسا له"<sup>3</sup>.

إن عقدة التسامي والزرعة الماضوية أصابت الطبقة المثقفة العربية خاصة إذ نلاحظ في المجال ذاته العديد من الكتابات تصب في الفخر والمديح والغوص في أعماق التاريخانية، ككتاب "أصالة الفكر العربي" لعبد الرحمن مرحبا، أو مؤلفات عبد الحليم محمود...

2- ذهان السهولة والاستحالة: تبني مالك بن نبي نظرية الحدين، التي تعكس أن الفكرة أو الشيء يقع بين طرفين متناقضين: الإفراط والتفريط، وضعهما كمقياس ومقيار فعالية الأشياء أو عدمها، والإنسان السوي هو من يستطيع أن يساوي بين الحدين ولن يستطيع ذلك إلا في حالة وجود نسبة متساوية بين الاستجابة والتحدى، وعندما تفقد تلك السمة يصبح الإنسان غير سوي، تتحكم فيه عقدتين فإما يفرط أو يفرط.

وإنسان ما بعد الموحدين أصيب بذهانين (deux psychoses) السهل والمستحيل وذهان السهولة ينطلق من شعار "كل شيء سهل" مما يوحي بعدم الجهد أو النشاط ويفضي إلى الكسل والدعة، فالمسلم اللأشاهدي يسهل الأمور حتى تعتقد أن الأمر لا يحتاج إلى أدنى طاقة أو عمل، مما يؤدي إلى عدم التخطيط والتقدير، فيظهر داء التأجيل أحد ألد أعداء الوقت، وبالتالي يحدث الشلل الاجتماعي لخلل الوظائف في السلم الاجتماعي، يقول مالك بن نبي: "طالما ظل



ثانيا: سمات مرض عقل ما بعد الموحدين: قدس الإنسان منذ القدم العقل، وأصبح معيار لتفكير والتميز الإنساني ولقد اتخذ عند اليونان مفهوم (اللوغس) وعند الفرس (التومس) وعند الفراعنة (ماعت)، والعقل عند العرب من فعل ثلاثي عقل بمعنى ربط أو أوثق والقصد من ذلك ملكة ربط الأشياء والأحكام بعضها ببعض حتى تعطي معنى واضح مدرك، والعقل عموما هو ملكة لتفكير من موازنة ونقد وحكم وإدراك...

غير أن العقل الإنساني يسير جنبا إلى جنب مع التاريخ، وبالتالي يعتريه التحول والتبدل، ويدخل في نطاق الأمراض شبه الصبانية حيث تتجلى سماته المرضية فيما يلي:

1) الذرية (ATOMISME) عندما نستعمل منهج الحفر الأركيولوجي في دراسة العقل لبشري، فإننا نلاحظ وجود طبقات عقلية على غرار طبقات الأرض، وكل طبقة عقلية تعكس مستوى الإنسان الفكري وما كان عليه في الماضي.

كما يتبين أن العقل يخضع لقانون الدورة، فعند مرحلة الميلاد الحضاري يكون حضوره بعد الروح التي تحتل المركز الأول وعندما تبدأ المرحلة الثانية (القوة) يكون العقل هو مركز الحضارة.

بيد أن المرحلة الثالثة (الشيخوخة) يصبح العقل مهمشا وتطغى عليه سمات مرضية نخص منها على الخصوص الذرية.

والذرية نزوع العقل إلى التجزئة والذرذرة الفكرية، وتصبح المشكلات العامة مجرد أجزاء مفككة، كل جزء قائم بذاته في تصورات العقل، وبالتالي تغدو مجرد أكوام، تفقد صورة التكامل وتبتعد عن منهج التركيب المتألف.

إن الذرية علامة من علامات عجز العقل أو أزمتها، والعجز أدق من الأزمة، لأن الأزمة قد تكون حاضرة حتى في مرحلة قوة العقل وشوليته، لكن العجز مرتبط بالانحطاط.

ويذكر مالك بن نبي أن المستشرق الإنجليزي هاملتون جب أستاذ بأكسفورد، أقم العقل الإسلامي بالذرية في كتابه (LES TENDANCES MODERNES DE L'ISLAM) أي (الاتجاهات الحديثة في الفكر الإسلامي). ومالك لا يوافق جب في جوهرية الذرية في العقل الإسلامي، لأن الذرية حالة من حالات كل عقل، تتجلى في مرحلة البداوة البدائية التي تصيب الكائن الحضاري وفق مبدأ الحتمية التاريخية.

والعقل الأوروبي شهد ذرية قاتلة قبل عصر ديكارت، أي عندما كان الغرب يعيش عصور الظلام على نحو اصطلاحه وفلسفته.

وبالتالي فالذرية ليست سمة فطرية في العقل الإسلامي وإنما يكتسبها الإنسان غالبا في خطواته الأولى، كما كانت الحال في أوروبا قبل ديكارت وكما صارت إليه الحال بعد عصر ابن خلدون في العالم الإسلامي، عندما توقف كل جهد عقلي.

والذرية تعمل على تضييع الوقت الذي هو ثالث قطب للحضارة، وبدل أن يدرك العقل العضلات الحضارية ومسوغات حلها فإنه يتجه نحو الاهتمام بأجزائها المتناهية في الصغر. حتى وإن استطاع فهم بعض الذرات من أزمتنا وقضايانا، فحتما أن إدراك الجزء لا يغني عن الكل شيئا.

ولم تستطع النهضة تعديل العقل أو إصلاحه، بل العكس تماما وقع العقل الإصلاح في الذرية، كما نلاحظ ذلك عند محمد عبده ومحاولة الاستنجاد بالعقل الكلامي لفهم قضايا عصرنا.

والذرية رغم كونها مجرد عرض إلا أن الفكر الإسلامي لم يستطع التحرر منها، قياسا والعقل الياباني الذي عدلها في غضون نصف قرن من عمره الحضاري، يقول مالك بن نبي: "فلن يكون هذا العجز سوى عارض خاص بعقل ما بعد الموحدين، ولم تستطع -الاستطاعة عند بن نبي- لكمن في التفعيل- الحركة الحديثة أو حركة الإصلاح تعديل الاستعداد العقلي في هذه الناحية لعديلا جوهريا".<sup>10</sup>

والذرية تعكس مأساة إنسان استيقظ دون (هزة قلب)، ودون توتر فكري، أو قلق حضاري يدفعه إلى التقدم وتحقيق النموذج.

2) داء الوثنية: التقديس أحد ملامح السلوك البشري منذ القديم، وكان أول ما قدسه الإنسان البدائي الطبيعة التي كانت مصدر دهشته وحيرته، ثم ما لبث أن تحول التقديس إلى تأليه، فصارت من جملة الأوثان التي تعبد. وكانت مهمة الأنبياء القضاء على الوثن الجسد كما فعل إبراهيم ومحمد (ص)، وإذا كان تحطيم الأوثان المجسدة يحتاج إلى دعوة ورجال يحملونها، فإن العقل البشري عرف أوثانا غير مجسدة لا تشغل حيزا مكانيا، بل تربض في العقل ذاته، وإذا كان الرسول قد لمحج في تحطيم أوثان الكعبة فإن العقل الإسلامي صنع من جديد أوثانا جديدة أخطر من الوثن المعبود، لأنها قضت على الإنسان الشاهد قضاء حضاريا.



وأنا أخط هاته الأسطر، رأيت أوثانا جديدة تأخذ مكانها في عقل إنسان ما بعد الاستقلال، تتمثل في الحزب السياسي. لقد غدا في ذهنية المواطن صنما يعبد دون طقوس، إن أزمة الجزائر الراهنة تعود إلى سيطرة أوثان جديدة صنعتها السياسية المنحرفة والتي هي أقرب إلى البوليتيك العامي منها إلى الفكر السياسي.

3- الرعة التبريرية والعقلية الجدلية: الإنسان ميال بطبعه إلى الجدل والتبرير، إلا أن الميل قد يتحول إلى مرض نفسي يسلب العقل طابعه النقدي ويفقده القدرة على الربط والموازنة، وإنسان ما بعد الموحدين طغى على جل أعماله سواء العلمية أو العملية، الفكرية أو الأدبية طابع الجدل الكلامي والتبرير اللامعقول. والحركة الإصلاحية وقعت في مطب الداء السابق، فخلقت عقلا يلجأ إلى التبرير كلما حضر مركب النقص في ذهنه، فمسألة التحضر والتقدم تأخذ منحرجا خطيرا، إذا ما دخلت الدول الآسيوية نطاق المقارنة خاصة كاليابان مثلا، فترى العقل يبرر أسباب تقدم اليابان وتأخر المسلمين، والمثال ما كتبه شكيب أرسلان وأبو الحسن الندوي.

والعمل الثقافي يبقى مجرد نشاط عضوي فقط، خال من أي عمل بنائي هادف، بل يحمل في ذاته عمل دفاعي لا غير. والجدل آفة العقل حتى ولو كان العقل صائبا في تصوره، لأن الجدل مطية الكهفية والترجسية، فالعقل عندما يصاب بداء الجدل لا تصبح الحقيقة غايته ولا المعرفة سبيله، بل الغاية الانتصار ولو بالغلط ودفن الحقائق، وهذا ما عبر عنه الدكتور برهان غليون بالعقل السجالي.\*\*

ولقد أدرك ابن رشد مشكلة العقل الجدلي، فحاول معالجة الأمر عن طريق تأسيس عقل جديد يحمل طابع التوفيق، لكن الدورة الحضارية لم تسعفه لأن العقل الإسلامي كان يتجه صوب داله. ويتجلى داء الجدل في واقعنا المعاصر تجليا واضحا في مواقف المفكر والمثقف والأديب الذي لا يريد أن يسمع لخصمه أو منتقده فلا تهمه الحقيقة إن كانت في غير مذهبه ونحلته. فالمصلح الديني لا يسمع للمفكر اليساري أو اليميني، والعكس صحيح، رغم وجود نقاط مشتركة لو اتفقوا عليها لأمكنهم حل كثير من الأزمات، يقول مالك بن نبي: "لم يكن المتجادلون يبحثون عن حقائق وإنما عن براهين، ولم يكن الجادل يستمع إلى محدثه، بل كان يغرقه في طوفان من الكلام والجدل من أضر الأمور على كيان الأمة، إذ هو يقوم في عمومته على هيام أحق بالكلمات." 13

وعندما ندرس فكر فرانسيس بيكون نلاحظ وجود نظرية الأوهام أو الأصنام المتعلقة بالعقل (the idol of the mind) والتي حددها في خمس عناصر:

1- صنم القبيلة (the idol of tribe) يتركب من العادات والتقاليد والأساطير والقيم العرفية.

2- صنم السوق (the idol of the market) يتركب من معاني اللغة وآلياتها.

3- صنم الكهف (the idol of the cave) تصورات الذات المنطوية في عالمها السحري المغلق.

4- صنم المسرح (the idol of the theater) تكونه أعمال السلف التراثية وفلسفتهم وعلومهم.

5- صنم الكنيسة (the idol of the church) المعتقدات الدينية المتغذية بروح الدوغمانية المطلقة.

وإذا كان بيكون يدرس العقل الغربي في عصره، ويكتشف أوثانه المعيقة فإن مالك بن نبي درس هو الآخر العقل الإسلامي المعاصر، واكتشف وجود أوثان تصارع الأفكار الأصلية، وهذا ما نلاحظه في كتابه "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي" حين وضع فصلا بعنوان "صراع الفكر والوثن". 11

وأخطر الأوثان ما تجسد في صورة الدرويش أو (الولي) ثم في شخص الزعيم السياسي. والعلاقة بين الفكر والوثن على مر التاريخ تتجدد في عدة صور، فكلما سقط الوثن أمام تحدي فكرة أصلية، أعقبه إنسان ما بعد الموحدين بوثن جديد، وجدلية الفكرة والوثن يخدم صراعها عندما يفقد العقل القدرة على الإدراك والتفكير الصحيح، فالإنسان الصحيح هو صاحب التفكير الصحيح.

والعقل الإسلامي منذ الانحطاط يعيش في دوامة الأوثان، مما نتج عنه ضعف العلاقات وتمزق الشبكة الاجتماعية، وعودة عقلية التجمع المفكك. ويلخص بن نبي الجدلية السابقة في قوله: "هذه الجدلية تحدد طبيعة علاقة الفكرة- الشخص، التي تنقلب عند التطرف إلى علاقة فكرة-وثن، وبفضل تلك العلاقات المنحرفة نحو التطرف فإن الشعب الجزائري أقام قنب مرابطيه وأوليائه، وحافظ على عكوفه عليهم عبر قرون ما بعد الموحدين". 12



عدم ارتباط الكلام بالفعل، وهذا الحال يعكس حدوث تصدع بين "الذات والموضوع"، وبالتالي حدث ما يصطلح عليه في علم النفس "الانفصال".

ج) اللفظ تحول من رسالة حضارية تترجم الأفكار إلى مجرد شهوة تدفع إلى الكلام كما يدفع الجوع إلى الطعام والجنس للجماع. إن الهوس بالكلام كالهوس بالمخدرات أو السجائر، لإنسان ما بعد الموحدين غرامه بالكلام قتله من حيث لا يدري، كما فعل الدب بصاحبه.

د) من المعلوم أن الفكر السفسطاني جعل من الخطاب معيار كمال الإنسان وكان الخطيب سلطته وشهرته تعلو على حسب مدى صناعة الكلام.

وعصر ما بعد الموحدين اتجه نحو نفس الغاية، وكان معيار العالم ما سماه بن نبي "بحر علم" و"حجة الأنام"... ومعيار "وفرة العلم" يترجم أن النموذج الحاضر هو "إنسان الكم".

هـ) ظهور المقدس اللفظي في الثقافة الإسلامية جعل اللغة العربية تصاب بالجمود وفقدان الفاعلية والحركية. وبين مالك بن نبي داء اللفظية في قوله: "وهنا يؤدي بنا المقام إلى الحديث عن الحرفية، فلقد أبدعت العبقريّة العربية أجهل لغات العالم، ولكن هذه العبقريّة كانت في موقفها مما أبدعت، كالمثال الذي هام بتمثاله، وقد أبدع مناقشه، والغرام بالكلمات أخطر من الغرام بالمعدن أو الرخام أو الحجر، فهو يؤدي أو لا وقبل كل شيء إلى أن يفقد الإنسان حاسة تقدير الأمور على وجهها الصحيح، وهو أمر ضروري لكل جهد إيجابي من أجل البناء".<sup>15</sup>

ولا زال الغرام بالكلمات في الوطن العربي يجد حضوره في الإمام الحكومي والدعوي معا، وفي السياسي والنقابي... وبالتالي لازلنا نعيد صنما اسمه اللغة.

الحرفية الثقافية: الخطاب العام في العالم الثالث، يبرر التخلف بأمية الإنسان وجهله. المثقف في الوطن حيث العربي يعتقد نفسه نموذجاً عاملاً ومقبولاً حين يتحصل على كم من الشهادات أو التزكيات بالنسبة للمصلحين الدينيين، وحين ينعت في المحافل وعلى صفحات الجرائد بأنه مثقف، والخطورة تتجلى في تحويل الثقافة من رسالة حضارية إلى وسيلة إلى اكتساب الخبز، وعليه تصبح مجرد حرفة أو مهنة.

ومرض الحرفية يتسم بمظاهر سلبية تفرزها رغبة الذات المهزومة في سلوك "التعلم"، والذي نلاحظه في شتى نواحي الحياة العامة والخاصة. وإنسان ما بعد الموحدين ما إن يتعلم حروفاً حتى يخال نفسه صار عالماً ومفكراً، والصعوبة تكمن في انعكاس البلاء على التربية والتعليم، وعلى

وتشير المصادر التاريخية أن أهل القسطنطينية غرقوا في جدل عقيم حول مسألة الأسبقية الوجود (البيضة أم الدجاجة؟) بينما جيوش محمد الفاتح تدك أسوار المدينة وتفتح أطرافها.

إن الجدل عندما يقترن بالعقل الطبيعي يولد عقما وشللاً قاتلاً، ولم يحدث في تاريخ الفكر لبشري أن انتصر العقل الجدلي، بل كان دوماً مرتبطاً بالانحطاط وبداية الأفول، والعصر العباسي الأخير غرق مثقفوه في الجدل، حتى فقدوا العقل الراشد واكتسبوا العقل التائه، الذي مهد للمغول قويض الحضارة الإسلامية.

ثالثاً: سمات مرض السلوك الاجتماعي أمراض النفس والعقل تنعكسان على السلوك العام للمجتمع، فيكون السلوك مطابقاً للمبدأ السيكولوجي والعقلي، وعلى هذا الأساس فإن السلوك الاجتماعي لإنسان ما بعد الموحدين أصيب بالأمراض شبه الصيبانية، وتجلت أعراضه في عدة سمات مرضية نخص منها ما يلي:

داء اللفظية: (العائق اللغوي) عندما تنطوي النفس على أغوارها العميقة في متاهات اللاشعور الجمعي وينصاع الأنا للهو، يجد السلوك الغريزي طريقاً سهلاً للتواجد والتحقيق. وتعمق الأزمة عندما يفقد العقل رشده ويسبح في يم التيه، ساعتها يتجه السلوك العام للجماعة إلى مواطن القداسة، ومن أهمها اللغة، إذ ينشأ سلوك سحري غريب، يتجه نحو اللفظية المتمثلة في إجادة الكلام والهيام به، وتصبح الألفاظ معيار الكمال وتقام بلوغ المرام، وبدل أن يكون العقل والقلب واليد معايير الوجود، يصبح اللسان وما يلوّك من ألفاظ خلاصة قد لا تحمل أية معنى ولا فكرة، ونلاحظ داء اللفظية يتجلى في عدة مظاهر:

التربية التقليدية (التعليم) اتسم بالطابع البلاغي الأدبي، واقتصر التحصيل على مدى قوة المتعلم في إجادة الكلام، وكثرة التأليف وقوة حوصلة العلوم في قوالب الرجز الشعري. ولقد ذكر ابن خلدون في مقدمته كثيراً من سلبات إنسان ما بعد الموحدين، تخص ما نحن بصدد تحليله، وبخاصة الفصول التالية:<sup>14</sup>

1) فصل في أن كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل.

2) فصل في أن كثرة الاختصارات المؤلفة للعلوم مخلة بالتعليم.

واللفظية كسلوك عام جعل المثقف العضوي والفقير المتمذهب يرى كماله في لسانه، وأن أسماء الشهرة، كالعلامة ووحيد زمانه إنما تكسب بالبراعة في البيان.



ولم يسلم التعليم من الشنيئية، فلقد اعتقدت المدارس الإصلاحية أن ما يصلح التعليم هو إدخال المنضدة والكرسي واستعمال السبورة، لكن العقل العربي لم يفكر في توفير الجو المعرفي قبل توفير الشيء. كما أن العلاقات الاجتماعية نفسها لم تخرج عن إطار التقييم الشيء. ولقد أعاق التفكير في "عالم الأشياء" العالم الإسلامي من إدراك جوهر مشكلاته الحقيقية، وخاصة المتمثل في عالم الأفكار وعالم الأشخاص.

وبن نبي يحاول من خلال إبراز الشنيئية كترعة مرضية أن يلفت الانتباه أن الإنسان ليس كما ولا مادة، بل الإنسان جوهر روحي مادي. إن الإنسان ليس في نظر المسلم (الكم) الذي نهرى عليه تجارب المخبر، وعمليات المصنع وحاجات الجيش، فالإنسان ليس (الكم) بل (الصفة). عندما تناقش مشاكل العالم الثالث على العموم، نلاحظ أن الإنسان الجنوبي يجعل تخلفه والعطالة يرجع إلى عدم امتلاكه للصاروخ كرمز للدفاع، والهاتف كرمز للاتصال... ولما امتلك في بعض البلدان الشيء لم يستطع أن يحطم صنم التخلف بل العكس تماما كلما وفر الشيء زادت علاقاته الاجتماعية سوء وتدهورا.

4- الزعة السياسية وداء العظمة وسلوك الاستبداد: السلطة وبريقها، والعظمة وسحرها، جعلت الصراع يحتدم بين مجموع الأفراد والسياسة منذ القدم، ولم يستقم العمل السياسي والممارسة السياسية إلا من خلال الدساتير والمواثيق فقط لكن عندما يكون الشعب في ذروة الحضارة. ولعل أبرز مؤشر لمعالم الانحيار يكمن في السياسة فلقد ذكرنا سابقا أن مشكلة العالم الإسلامي بدأت حين وقع الشرخ في كيان المجتمع من حادثة السقيفة وصفين. إذ بدأت الزعة الاستبدادية تتجذر في أذهان الحكام ونفسياتهم، ولم تعد العلاقة بين الراعي والرعية كما حددها القرآن، وتمثلت في شخص عمر بن الخطاب، بل أصبح الحاكم يعتبر نفسه الوصي بدون وصاية، والسيد بدون اختيار. فلم يمر وقت طويل حتى شهد العالم الإسلامي فتنا سياسة وحروباً داخلية ودول تنهار وأخرى تقوم، وبدأ المعول السياسي ينخر كيان الأمة نخرًا.

والسياسوية نزعة أفرزها العقل الذري، الذي يعتقد أن السياسة هي جوهر المجتمع وأن بإحكامها تنصاع الرعية. ولا يتأتى الأمر إلا إذا كان الحاكم فوق رعيته، ميزته الاستبداد والقوة، وكان بمكيافيللي لما ألف كتابه (الأمير) كان يعكس صورة المجتمع السياسي في الأقاليم الإسلامية.

الرأي العام من خلال وسائل الإعلام، وعلى الدين من خلال الإمام المتعالم، ويوضح مالك بن نبي المرض فيقول: "والحقيقة أن منذ خمسين عاما نعرف مرضا واحدا يمكن علاجه هو الجهل والامية. ولكننا اليوم أصبحنا نرى مرضا مستعصيا، هو التعالم، وإن شئت فقل: الحرفية في التعلم، والصعوبة كل الصعوبة في مداوته، وهكذا أتيج لجيلنا أن يشهد خلال النصف الأخير من هذا القرن ظهور نموذجين من الأفراد في مجتمعا، حامل المرقعات ذي الأطمار البالية (يقصد رجالات الإصلاح). وحامل اللافتات العلمية (أبناء الجامعات)".<sup>16</sup>

وفي بلد كالجزار لم نستطع في فترة (1989-2000) أن نغيز بين العالم والمتعالم ولا بين السياسي الحق والبوليتيكي المغامر، ولا بين الفقيه والدخيل، ذلك أن أغلب الشعب في لحظة ما، صار متعلما أو سياسيا، وأدنى درجات التقمص تمثلت في الفقيه المفتي الذي استباح ثلث الشعب من أجله تحقيق نموذج.

إن السلوك الاجتماعي حين تعتره مثل هذه الأمراض وغيرها يكون بادرة للانحلال والمفسدة، وتفويض معالم المجتمع والمتمثلة في جهاز الدولة وشبكة علاقاته.

3- داء الشنيئية: الشيء له حضور قوي وسحر في الذات، لتعلقه بالذات والشهوات، وسد الحاجات الملحة، كما يعد عند الشعوب ذات البعد الواحد معيار القوة والحضارة، والسلوك الاجتماعي عندما يطغى عليه الشيء ترى جميع الممارسات تحاول أن تركز عليه كمطلب وقاعدة وغاية.

والشيء بكل ما يحمله من أبعاد يعود سلبا أحيانا على الإنسان وخاصة إذا أصبح محور تفاعلات الذات، والإنسان الجاهلي كان غارقا في عالم الأشياء فتحول سلوكه إلى مادي ولم يخرج نمودجه عن نطاق الشيء (فرس، امرأة، مهند، ولد ذكر، إله من حجر أو تمر... الخ).

وعندما يفقد الإنسان السيطرة على الشيء، يتحول فكره وسلوكه إلى الزعة الشنيئية يصبح الكم اللغة السائدة والمعيار الناقد. ومثل جمال الدين الأفغاني في تصورات الزعة الشنيئية حين انزل فكره في عالم الأشياء، وأعتقد أن حل المشكلات حضارية يكمن في الشيء.

فالهند تمتلك زحما بشريا يفوق سكان بريطانيا أضعافا مضاعفة، ورغم ذلك فالثلة البريطانية استعمرت الكثرة الهندية. وجمال الدين من وهم الفكر اعتقد أن الحل يمكن في كم من الأشياء ينتجه السلوك الاجتماعي الهندي، وعليه لمح للهند، أنهم لوبصقوا على الجزر البريطانية لأغرقوها في بحر من اللعاب.



## الهوامش:

- 1- بن نبي، مالك، الفكرة الإفريقية الآسيوية، ص 91.
- 2- عبد اللطيف عبادة : (مناهج الحركات الإسلامية المعاصرة في التغيير) الموافقات مجلة حولية يصدرها المعهد العالي لأصول الدين، العدد الثالث 1994 ص 32.
- 3- بن نبي مالك وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط5، 1986، ص 60.
- 4- المصدر نفسه، ص 88.
- 5- المصدر نفسه : ص 88.
- 6- المصدر نفسه : ص 88.
- 7- بن نبي، مالك بين الرشاد والته، ص 42.
- 8- لغلبة اللون الأزرق على ثياب الصيني وخاصة بدلة (الشونغاي).
- 8- المصدر الأسبق، ص 42.
- 9- بن نبي، مالك، وجهة الإسلامي، ص 85.
- 10- المصدر نفسه: ص 84.
- 11- بن نبي، مالك، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة د. يسام بركة وأحمد شعيب، دار الفكر، الجزائر، ط1، 1991، ص 95.
- 12- المصدر نفسه، ص 96.
- \*\* أنظر، كتاب، اغتيال العقل.
- 13- بن نبي مالك، وجهة العالم الإسلامي، ص 58.
- 14- عبد الرحمن، ابن خلدون، المقدمة، ص 399-400.
- 15- بن نبي، مالك، وجهة العالم الإسلامي، ص 58.
- 16- بن نبي، مالك، مشكلة الثقافة، ص 75.
- 17- بن نبي، مالك، بين الرشاد والته، ص 82.
- 18- المصدر نفسه، ص 92.

ومجتمع ما بعد الموحدين، مارس ساسته أشنع صور الاستبداد وغلبت المصالح الشخصية القيم الأخلاقية والإنسانية، وغدا المجتمع مذرذرا مفككا، تسوده الطبقية. ولقد تفتن مالك بن نبي للنتائج المترتبة عن ذلك في قوله: "وإذا ما تعذر هذا العامل (يقصد التعاون بين الفرد والدولة)، فإن القطيعة المعنوية سوف تعزل الدولة عن المواطن وتشل الطاقات الاجتماعية، أو تشتتها تشتتا تكون نتائجها: عدم الانسجام وعدم التناغم، ومعارضات طاغية في فوضى شاملة، يسودها شعار (عليك خاصة نفسك)".<sup>17</sup>

والساسة في المجتمعات المتخلفة يتلونون كالحرباء مع أي وضع مستجد، فعندما تتضارب المصالح فلن تكون السياسة سوى دكتاتورية عارمة، كما تعرفها بكل أسف كثير من بلدان العالم الثالث، وهي بالتالي لن تستطيع أن تنسجم في الحقيقة مع مصائر الأمة ولا أن تحقق أهدافها.<sup>18</sup>

وعندما بدأت الشعوب تخرج من نطاق الأمية وتتخطى أوهاام العقل رويدا رويدا، بدأت الحروب السياسية تتلون من جديد بألوان الإغراء والوعد، والشعارات البراقة، خصوصا حين ترفع شعارات خلافة وتصرح بوعود مغرية.

وجملة القول أن السمات السلوكية السابقة هي أبرز مظاهر اللاتحضر، وتعكس مدى سيطرة الوعي الزائف على الذهنيات، وأغلب المجتمعات الإسلامية والعربية لازالت الأمراض الطفولية ميزتها الأساسية.